التاريخ وأسئلة الهوية بين الأنا والآخر في البنية السردية في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج

أ. العلمي مسعودي
جامعة الوادي - الجزائر
د. حسين دحو
جامعة ورقلة - الجزائر

تعد مسألة الهوية ذات تجلٍّ وجودي ومعيشي في الكثير من أبعادها ، وهذا ما جعل الإنسان يوليها أهمية خاصة عبر العصور والأزمنة حتى استطاع أن يحوصل كل الذي يحدث داخل مفهومي "الأنا و"الآخر" وما يحدث بينهما من احتكاكات وتحديات تتجلى في وقائع وأحداث التاريخ، تصبغان الكينونة الإنسانية بنكهة وطعم متميزين.

إن **"الأنا"** باعتباره العضو المدرك ليس فقط لما يصله من إحساسات تأتيه من الخارج ، ولكنه يدرك أيضا الإحساسات المتأتّية من الداخل ..أجل "الأنا" ذلك الجزء من الهو الذي تحول وتغيرت وظائفه من تأثير العالم الخارجي ، وباعتبار" الآخر" بانيا ومحافظا على ذلك التضاد الذي يتقاطع فيه وعي "الأنا" بوعي "الآخر"، الوعي الذي يوجد في مراقبته للأنا، والذي ينبغي أن يتعاطى معه لكي يعيش، يصبح**"الأنا"و"الآخر"** ندّين لا ينفصل الواحد منهما عن الآخر في المعيش الفردي أو الجماعي للواقع الإنساني" ووفق ذلك يمكن القول أن "الأنا"و"الآخر" وجهان لعملة واحدة مفروض على بني البشر التعامل على أساسها لقضاء مآرب ومقاصد الكينونة الوجودية.»([1])

Translation

We still have existential / living controversy about writing to be human identity across the context of Tjazba between the elements and several entities, may vary can help each other in accordance with an astonishing diversity of weather stations, on the contrary a synergy, even the necessity, is the fundamental criterion for Being existential dynamics, and when you witnessed this norm in what happens between humans manifests itself more and is in the concept, the desire to dominate, Highness instinct, the love of passing, the phenomenon of uniqueness and genius, other concepts that manifests itself through the human march is in search of a positioning of the center of this benchmarks product arena of civilization and sometimes causing destruction at other times.

إنّ الأنا العربي لا يخرج عن ذلك الإطار المشار إليه، رغم كونه يمتح أيديولوجيته من رافدين هما، العروبة والإسلام، مما قد يبرر لبعض الباحثين استبداله بالذات ، على الرغم من كون "يونغ "يرى أن، "الأنا" "...المركب من التصورات بشكل مركز لحقل الوعي ، وهو مالك لدرجة عالية من التواصل والهوية..وبذلك يجب أن نفرق بين "الأنا"و"الذات"لأن الأول موضع الوعي ، بينما يعد الثاني أشمل لأن موضوعه كلية النفس بما فيها اللاوعي([2]).

ولقد دفع العرب المسلمون ثمن ذلك البزوغ في اشتداد مشاكسة "الآخر"وشراسة هجماته وتواليها عبر الأزمنة المتعاقبة حتى العصر الحديث، بداية من الفتوحات الإسلامية مرورا بالحروب الصليبية ووصولا إلى ظاهرة الفكر الاستشراقي ، حيث كان القصد من وراء ذلك كله مغالبة "الأنا" العربي الإسلامي والتقليل من شأنه ومحاصرته.

«ولقد حظي موضوع **"الذات"** بمعالجة كثير من المفكرين والمثقفين، كل حسب تخصصه، وهذا لما تضمنته الذات من قيمة علمية وفكرية متميزة ، لأنها كانت مثار جدل ونقاش الذي أسهم في ظهور الكثير من القضايا .ومن أبرز المؤلفات كتاب"وعي الذات العربية والقومية لنبيل سليمان"الذي أبرز فيه العلاقة بين وعي الذات والفردية العربية القومية ووعي العالم المحيط بها ذا قيمة متميزة .»([3]) ، أما في حقل الأدب فكان من خلال المتون الروائية العربية وفق السؤال المفترض:كيف يعبر الروائي العربي اليوم عن عملية استيعاب العلم والذات؟ إلا أن الثغرة البارزة في كتابه أنه لم يدرج عبر النصوص المدروسة أقطار المغرب العربي.

وهذه الثغرة جعلت الكثير من الدارسين يتنبهون لها ، لأن، الجزائر –مثلا- جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ، ومن هذه الوجهة ارتأيت أن يكون موضوع الدراسة حول المتن الروائي الجزائري محاولين طرح أسئلة تصب في كيفية تعاملنا مع الآخر، ومن هو الآخر ؟ وما المدى الذي وصل إليه الوعي بذلك التواصل ؟ وهل يمكن لذلك التواصل التقليل من شأن الهوية؟ وكيف تبلور ذلك التواصل مع "الآخر"ابتداء بالمعيشي إلى مستوى البنية السردية إلى غير ذلك من الأسئلة الطموحة لإبراز ذلك التعالق بين التاريخ والهوية اتكاء على النص السردي الذي جعلني أخوض مقاربة معتقدا أنها تجيبني على بعض هموم هذه الإشكالية .

ومن هذا المنطلق تبدو لي مسألة الهوية « ذات بعد استراتيجي في الكيان الجزائري، وهذا ما جعل الكثير من الدارسين يتصورونها بأنها ذلك الميكانيزم الفعال في خلق الجدلية الوجودية بين الذات الجزائرية وبين المحيط والكيانات المتقاطعة معها عبر العصور وفي الآونة الأخيرة ، نالت هذه المسألة اهتمام مجمل الخطابات المستهلكة في العقدين الأخيرين، والتي تفوق فيها حسب الظاهر»([4]).

ففي الخطاب السياسي تمت اختصار القضية بسهولة ويسر في مفردات ثلاثٍ هي: الأمازيغية والعروبة والإسلام، كما استطاعت كثير من الخطابات الموظفة للمناهج العلمية، كالتاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والعسكرية ، أن تمتح بصعوبة من تلك المفردات الثلاث مدونات تبرز

ذلك الترابط الأناسي والحضاري المحوصلة للهوية المنبسطة فوق أزمنة كرونولوجية شرعت الكينونة الآنية للذات الجزائرية بكل خصائصها ومميزاتها بصيغة الإجمال والتقريرية. كل ذلك الزخم لم يشبع نهم الخطاب الأدبي الذي يمكن تصوره بأنه الخطاب الوحيد القادر على بلورة وإثراء بعض القضايا المسكوت عنها في الخطابات السابقة .» ([5])، لأن الخطاب الأدبي لم يبقَ قعيد الثبوتية بل تجاوزها إلى جوهر المجالات الوجودية المكبوتة والأنوار الفردية والجماعية المنتجة بالضرورة ، إلى تنوع سياقي للخطاب الأدبي كما تدل على تفرده وتشعبه بحسب لغته أو جنسه، ([6])

إن إشكالية التاريخ وأسئلة الهوية تجعلنا نعتقد من خلال ما سبقت الإشارة إليه أنها جدلية النقاش لا نكاد ننفك منها لأنه قائم أساسا على مبدأ "الهوية"ولابد أن يؤسس على بعدي الذات والوعي، ولبلوغ دمقرطة ذلك النقاش يتطلب منا إدراج بعد ثالث والذي يتمثل في متن سردي محدد لنتمكن من خلاله من تشريح الوعي وتبيان مدى علاقته بالهوية في مرورها عبر الذات الصانعة للوقائع التاريخية أو الواعية بها والخاضعة لجبرية الصيرورة ، وهذا التصور لا يمكن أن يتم إلا عبر أداة التأويل التي تمتح من معين مخزون الذاكرة "الأنا الجمعي "والأقوال والافتراضات المنافية والقطعية و الثبوتية. ([7])

مما سبق كله يمكن القول بأن الجزم في مسألة أسئلة الهوية عبر أسئلة افتراضية قد يجرنا إلى مخاطر ومجازفات نحن في غنى عنها، وذلك كما نعرف أن "الأنا" و"الذات" المبدعة لتلك الخطابات تعاني من الأسئلة في هوية الانتماء الجذري ، وذلك لكونها منصهرة في عمق التقاطعات بين هويات مختلفة إذا لم نقل متباينة مثل هوية المدينة ومرجعياتها ومؤشراتها ، وهوية الريف وتداعياته وكذا تحفظاتها إضافة إلى هوية اللغة الفرنسية ودثار "الآخر"بها حضاريا وفكريا وأيديولوجيا في مقابل هوية اللغة العربية وتلبس الأنا بقداستها وخلودها في الدارين ، الدنيا والآخرة.([8])

والمنجز السردي الذي يمكن أن يكون مرافقا لنا عبر تلك الإمكانات التأويلية هو متن "كتاب الأمير"الذي هو متن مفتوح بالقوة على مجموعة من القراءات الحاملة لأكثر من تأويل ، والذي يمكن أن يحيلنا على ما يحمله التاريخ من الإجابة عن الهوية وتساؤلاتها التي ظلت تراودنا أسئلتها من الوهلة الأولى ، لأن هذا المتن المجتث من نضال الأمير عبد القادر الجزائري ضد الغزاة ، هو في الواقع الذي أشاد به ومجده العالم كله، وجعل الأعداء يتناولونه بالتحليل والإثراء والاعتراف بما صنعه قبل الأصدقاء ، كما حوته كل المدونات ذات الصلة ببناء الدولة الجزائرية في جميع حقولها وامتداداتها. » ([9])

وقد عبر هذا المتن السردي على نفحات الذات الجزائرية "الأنا" ، من فخر واعتزاز ومجد إضافة لما لقنته للذات الغازية "الآخر"، كما فتحت الرواية أمامنا أقواسا عن حقيقة النضال من أجل الدفاع عن كرامة الوطن وعن جوهر الإنسانية في أسمى معانيها وأخلاقها وشرفها .

فالهوية إذن يمكن أن نتمثلها من خلال "كتاب الأمير، وفي هذا المنجز السردي بالذات وفي هذا الظرف في ثلاث مقترحات أساسية:

1 . إن معايشة مبدع كتاب الأمير يكشف عن مظاهر مد العولمة وبشاعتها في العالم الغربي وما خلفته من آثار وتدخل في الذوات الأخرى بأساليب ابتزازية من خلال الشخصيتين البارزتين في الرواية وهما "الأمير عبد القادر"و"مونسينيوردديبوش".

2ـ لقد كان للأمير عبد القادر أهمية كبيرة خاصة ما يتعلق بنضاله ومواقفه لدى"الآخر" ويظهر ذلك مما كتبه عنه الروائي من آثار ترفع من قيمة الرجل وتعلي مواقفه و سلوكاته حتى جعلته من عظماء التاريخ..

هذا النص السردي في حقيقة الأمر كان فضاء متميزا ، لكونه كفيل بالإجابة عن معظم التأويلات والافتراضات ، ومرجع ذلك لما اتسمت به الوقائع التاريخية من قدسية صنعها الأمير عبد القادر وخلفاؤه وأبطاله ، والتي تعد محل فخر واعتزاز لكل الذوات الجزائرية في الحاضر وفي المستقبل على مر السنين. ([10])

واعتقد أنه يمكننا تصنيف هذا المتن الروائي ضمن البناء الفذ المبني أساسا على مقترح التاريخ وأسئلة الهوية ، انطلاقا من كونه عبر عن الذات والوعي والأنا، والآخر، هذا النص السردي يعج بالدلالات القابلة للتأويل ، وهذا ما حاولنا تلمسه في حقيقة الأمر عبر كتاب الأمير بغية الوصول إلى رسم بعض تضاريس ذلك التآلف أو التباين أو الانقباض أو الانبهار أو المسكوت عنه من طرف الآخر، لذلك اقتضت الدراسة منا محاورة النص محاولين فك بعض قيمه وشفراته ودلائله الظلية لإبراز مدى التعالق بين المادة التاريخية وما عبرت عنه فيما يخص "ألتاريخ وأسئلة الهوية"، ومع ذلك تبقى الممكنات التأويلية لمقتضيات العمل السردي ومقاصده التي تمنح الحق لكل قارئ في أن يفتح لنفسه كوة يتحسس من خلالها على مسكون المتن وممكناته.وتسهيلا لعملية الدراسة آثرنا تقسيمها عبر مراحل أو لحظات أساسية وهي:

أ. المبنى ودلائلية المعنى في الهوية السردية وتم تقسيمه إلى خمسة أقسام:

المتمعن في النص السردي الذي هو موضوع الدراسة فانه يستوقفه - من الوهلة الأولى - ما جاء في المهاد من دينامية عاقدة العزم على وضع دالة تاريخية ثابتة في كل المدونات ، تلك الدينامية الممثلة في "الأميرالية" التي كان لها جملة من الإيحاءات وفق انبساط زمني غير محدد، هذا التأويل لا يشبع نهمه الإجابات المتتالية والمؤكدة على عجز الآخر وفشله في غزو الجزائر من هذا الموقع بالتحديد ، وانبساط تداول في خضمه جموع الطامعين في غزو الجزائر عبر الأزمنة المختلفة من نفس الموقع حتى اللحظة التي يغادر فيها"جونموبي"و"الصياد المالطي" ندرك أن الفقرة القائلة بأن « **وقائع الزمن الغابر ومواجهات الذات "الأنا"مع "الآخر"قد عادت إلى الواجهة وإلى الصدارة الآن في فضاء يطبعه ويصنعه الصمت والتموجات الهادئة لبحر مثقل بالسفن والأحداث.**»([11])

هذه الفقرة عبرت عن وقائع يعود الفضل فيها إلى المتن الروائي الذي رسمها بإتقان متميز في بنية حدثيه جعلت المكان الأميرالية و"الآخر"جون موبي في حوار مفتوح تجاه "الأنا"الأمير" و الآخر"مونسينيور دي بوش" الغائبين، إلا أن المفارقة العجيبة تمثلت في عودة جثمان الأسقف ديبوش إلى الجزائر ليدفن في إحدى كنائسها تلبية لوصيته، مع العلم أنه ليس جزائريا، قبل عودة جثمان الأمير عبد القادر إلى الجزائر، وهو الجزائري الذي ناضل من أجلها والتي دفع من أجلها زهرة شبابه، وإذا حاولنا تجاوز كل ذلك فإننا نرى بأن "الأميرالية وهي حاملة **بياض القصبة** يجعلنا نعتقد أنها دالة مهمة كونها عبرت عن دوال التسامح الديني وعقد صلح مع الذات الإنسانية قاطبة، وبالتالي تعد مهام وغايات ومقاصد تناص فيها الأمير عبد القادر بإسلاميته ومونسينيور دي بوش بمسيحيته.»([12])

إن طبيعة دراستنا للمتن وبنيته السردية يفرض علينا أن نبين كيفية تداولها ، ومن هنا يلح علينا التساؤل التالي هل كان ذلك وفق إستراتيجية البنية السردية للمتن؟ وما هي الأطراف والدعائم السردية التي أسهمت فيه من الوهلة الأولى؟ وهل كان ذلك وفق استراتيجية البنية السردية للمتن؟ وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه قد تداول على البنية السردية خمسة أطراف أو دعائم سردية هي:

1ـ المنشئ للبنية السردية: «المبدع للمتن ، دون شك أو ريب قد بدت لنا بصمته بارزة خصوصا عند صياغته للوقائع التاريخية بمعيار عصراني ، ويتضح ذلك عند حديثه عن انعدام الوعي عند بعض شيوخ القبائل، والذي يمكن إسقاط بعضه على الذات الجزائرية، خصوصا عندما كان يعوزها هدف محدد يرتبط بقدسية النضال ، وما يتطلبه من إخلاص وصدق في تحمل أعباء هذه الرسالة ، رغم كل ما كان يبذله الأمير في سبيل ذلك من توعية وتكوين حتى كان يردد بحرقة:"..لا يعرفون أن الدنيا تغيرت. »([13])

2 ـــ الراوي: وهو ، الأنا الراصد الأمين لإرادة المنشئ السردي ، ويتضح ذلك عن طريق محافظته على التراتبية المطلوبة وعلى البنية السردية المقترحة وقالبها اللغوي الذي أراد المنشئ أن تصب فيه، وهذا ما يجعلنا نعتبره طرفا وهميا متخيلا سواء من جهة المنشئ أو من القارئ له، كما نلاحظ عليه مدى خضوعه لتلقين ما هو مطلوب منه دون توثيق أو إحالة على مرجع ما.

3 ـ الراوي الثاني /الشاهد، الآخر"جون موبي :لقد أوكلت لجون موبي في المتن مهمة التوثيق لتلك العلاقة القوية الكامنة بين مونسينيورديبوش "الآخر"وبين الأمير عبد القادر "الأنا"من جهة وبين السارد/المنشئ والراوي من جهة ثانية، وهذا ما جعل مفهوم المتن كله يؤكد على شيئين اثنين أولهما:أن هناك لعنة مست كل من دخلوا إلى أرض "الجزائر" أو أحبوها ...شارل العاشر الذي أمر باجتياح الجزائر انتهى إلى المنفى ، البارون دوسوهز الذي حضر له لم يكن مصيره أحسن، الماريشال دوبر مونت المنفي بدوره، حسن باشا الذي قاوم الغزو وانتهى إلى المنفى، عبد القادر الذي دافع باستماتة كان مصيره المنفى..ويلحقني المصير نفسه... ، أما ثانيهما فهو يتعلق بالأمير عبد القادر كونه

كان"..رجلا كبيرا لم يفهمه الفرنسيون و العرب..." كما أن مونسينيورديبوش مات وهو يردد...افتقدت تلك الأرض "الجزائر"ولا شيء يهمني اليوم إلا أن يلحقني الله بها..."، وهذا ما يؤكد أن جون موبي كان شاهدا عليه بل ظل محفورا في ذاكرته.

4المحقق في الوقائع "الآخر"مونسينيورديبوش:الملاحظ أنه قد اعتبره منشئ المتن مع الأمير عبد القادر طرفا لا يمكن الاستغناء عنه في المعمار والمبنى و التيمة لهوية متن "كتاب الأمير" باعتباره يجسد تيمة "الآخر"في جدلية صناعة الوقائع التاريخية منذ البداية وفي هندسة الأحداث السردية لاحقا، كما ظل المشروع الذي يمكن أن تقام في فضاءاته مجموع الحوارات الإنسانية بجميع مقاصدها ومرجعياتها ، مما جعله يقول عن الأمير"الأنا""**...ما سمعته من الأمير جعله يكبر في عيني أكثر...ويبدو أن الأمير من صنف آخر**..." ، وهذا في الحقيقة يؤسس ويعمق الآخر و أناه ويجعله مجزأ إلى فرعين ، الأول يقر بفضل الذات الجزائرية ولا يفصلها عن الذوات الإنسانية الأخرى، والثاني يجعلها فرعا آخر يجند ويوفر كل ما يملك من وسائل لتدمير هذه الذات وحرقها.

5 . الأمير عبد القادر "الذات الأنا:يستند المتن على عنصر أساسي ويتمثل في الأمير عبد القادر الذي يعد عنصرا أصيلا وهاما في بنية المتن ، لأنه أوقع صدمة تاريخية في ذات "الآخر"، لم يكن يتوقعها منه كما كان يظن أن الوعي النضالي في الريف الجزائري لم يصل بعد إلى درجة الوعي والنضج ، نتيجة لما كانت تعانيه الذات الجزائرية من عزلة وتهميش من طرف المتسلطين ، ومع ذلك فإننا نرى بأن الأمير عبد القادر قد عبر بصدق عن عمق التجربة التراجيدية حاملا فكرتين جوهريتين:الأولى كانت إيمانه الراسخ بوجوب محاربة الغزاة المدججين بأسلحة متطورة حيث كان يردد بين الفينة والأخرى، وإن إيماننا وحده ليس قادرا على تدميرهم... ، أما الفكرة الثانية فتمثلت في كون الذات الجزائرية التي لا زالت تعاني من الفكر والسلوك القبلي الذي يهيمن عليها كما أنها في أمس الحاجة إلى وعي حقيقي لتدرك مقتضيات العصر ومتطلبات الدولة الحديثة، وما يؤكد ذلك ما قاله مونسينيورديبوش" إن الحرب التي كنا نخوضها كانت قاسية ، وهي حرب كان الوقت سيدها الأول...." ، وهذا في حقيقة الأمر ما كان يعانيه الأمير عبد القادر من خيانة وخذلان من بعض القبائل والأفراد وبعض سلاطين الإسلام.، وهذا ما يؤكد اعتقادنا بضرورة تصنيفه بطلا تاريخيا، أنجبته بيئة ريفية لا تمتلك من الأدوات والمناهج التي تمكن من تسيير شؤون أمة، فالأمير عبد القادر قد فوجئ بالمبايعة وهو طفل صغير، مما جعله في حيرة من أمره، لعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقه مما دفع به الإقرار بأن:"هذه الأرض لم تعد في حاجة لأي أحد ...لا يعرفون أن الدنيا تغيرت وأننا على حافة عالم في طريقه إلى الزوال وعالم يطل بخشونة رأسه.

5 - كتاب الأمير وأدلجة التاريخ:

1ـالأدب والايدولوجيا: « إن البيئة الاجتماعية والأفكار السائدة وما تحمله من منظور إيديولوجي تؤثر في الفن بعامة، وتظهر الايدولوجيا عبر الأدب والدساتير والعادات والتقاليد

والفلسفات كأشكال متمايزة تعبر عن مضمون فكري بطرق مختلفة، واعتمادا على أفكار"جورج لوكا تشGyorgy Lukacs حول علاقة الأدب بالواقع أو ضرورة الواقع، يطمح "لوسيان غولدمان Golddman Lucien إلى إقرار العلاقات المباشرة بين البيئة الاجتماعية ــ الاقتصادية من جهة، وبنية الأدب من جهة، مدخلا تحت مفهوم البنية كلا من الشكل والنوع الأدبي ومبادئ تصوير الواقع.»([14])

وكون الأدب "مؤسسة اجتماعية " فهو نتاج تناقضات التاريخ والمرحلة التي أنتج فيها، ذلك أن الأدب والتاريخ والزمن والعلاقة الاجتماعية، تشكل وحدة متناقضة وديناميكية معقدة تتمحور حولها العلاقة الموضوعية للأدب والايدولوجيا باعتبار هذه الأخيرة متكأ أساسيا للنتاج الأدبي الذي ينتج بدوره إيديولوجيا نصوصه، أو بمعنى آخر الايدولوجيا الأدبية التي تخضع لانزياحات جمالية وأسلوبية تتوارى خلف أسوارها وتتمنع بها ، والكاتب كالصانع ينطلق من المواد الأولية ليقوم وفق عملية تحويل وتركيب وتشكيل اللغة بتقنيات الكتابة واتجاهاتها وأساليها. بإبداع النص الأدبي.

ومن هذا المنطلق يبدو «أن الأديب ليس عارضا آليا للوقائع والأحداث ولا يلتقطها بإحساس خارجي جاف ولكنها اصطبغت بصبغته وامتزجت بذاته ، والنص يغدو عصارة تفاعل عوامل عديدة تشكل موقفه الخاص من العالم ، ووسيلة فنية لإدراك الحياة، فهو بذلك يكون"نتيجة تعاقد آني مابين الكاتب والوسيلة وبعدئذ يمكن استنساخه لمصلحة العالم ، ووفقا للشروط المفروضة من العالم وفيه. » ([15])

حيث يتم في عملية التفاعل فعل التحوير والتغيير للغة إلى وضع جديد تنتظم فيه داخل نص أدبي بشكل جديد ، يحمل دلالات جديدة، وينتج عن عملية التفاعل رؤى جديدة أيضا للفنان والعالم، فهي إعادة إنتاج للمعنى واللغة لتعطي إيديولوجيا أدبية جديدة يصبح النص أحد خطاباتها، وقد اقترح "عمار بلحسن " ثلاث أطروحات تحدد رؤية العلاقة بين الأدب والايدولوجيا هي:

1النص الأدبي هو كتابة تنظم الايدولوجيا وتعطيها بنية وشكلا ينتج دلالات جديدة بحيث كل نص يحمل تجربته الخاصة ودلالاته المتميزة.

2ـ يقوم النص بتحويل الايدولوجيا وتصويرها، الأمر الذي يسمح باكتشافها وإعادة تكوينها كايدولوجيا عامة موجودة في عصر أو مجتمع معين.

3ـ يتضمن العمل الأدبي عناصر معرفة تعريفا معقولا فهو تمثل فني جمالي لظواهره وأشخاصه وعلاقاته وأحاسيسه.

وهكذا يكون العمل الأدبي فضاء رحبا يستوعب تجارب الإنسانية، ويعالجها ويوجهها ويعيد تشكيلها ، كما تتضمن نصوصه الخطاب الإيديولوجي الغائر في شبكة من أشكال التعابير وأنماط التراكيب، التي تفرض استقراء محكوما بمجموعة ضوابط علمية، يقوم الباحث من خلالها بعمليات

منظمة ، تقوم على المقارنة والتحليل والمراقبة للوصول إلى مقاربة افتراضية للخطاب الأدبي، ذلك أن لكل خطاب افتراضاته المتطورة التي لا تتضح دون مراقبة الكلمات.

وتلعب الكتابة الأدبية دورا هاما لأنها مسؤولة عن توظيف اللغة كقناة حاملة للايدولوجيا لأنها تتميز بخصائص ومميزات، إضافة إلى غناها بالدلالات، وهكذا يكون النص الأدبي بواسطتها رسالة ناجمة عن نظام محدد من المفاهيم والشفرات، حيث يقوم الباحث بعملية إبراز الخواص الناجمة عن توافق جملة من عمليات التشفير، وعلاقاتها الجدلية، وترتيبها البنيوي، مما يجعلها تؤلف شفرة أدبية عامة.

والملاحظ أن اللغة حين انتقالها إلى النص الأدبي ــ عبر خصائصها، تجسد ايدولوجيا، فحقيقة الكتابة من وجهة نظر"ميشال فوكو foucault Michel " هي بمثابة قلب منهجي لعلاقة القوة بين الحاكم والمحكوم .

وبذلك تغدو الخطابات الأدبية منتجة للايدولوجيا، وهذا ما يجعلنا نركز على الرواية بصفتها جنسا أدبيا تندرج ضمن حقل الأدب الذي وأحد مظاهر الايدولوجيا وأحد حقولها حيث نطمح إلى دراسة الايدولوجيا التي تنتجها ومحاولين إبراز العلاقة بينهما.

2ـ **علاقة الرواية بالايدولوجيا:** لقد عرفت علاقة الرواية بالايدولوجيا جدلا نقديا كبيرا، حيث امتدت جذوره الأولى إلى نشأة النص الروائي وارتباطه بالواقع الاجتماعي، وبصيرورة التاريخ واعتباره خطابا أدبيا وجماليا ، كما أنه حامل لصور ومفاهيم وتطلعات الفرد والمجتمع، والواضح انه يكشف رؤية الأديب نحو العالم والتاريخ، واعتقد أ، هذا الأمر هو الذي جعل التنظير للرواية يغلب عليه الطابع الفلسفي المتسم بالشمولية، حيث يجمع مفاهيم متعددة تستوعب نشوء الرواية وتدرج كنمط إيديولوجي ضمن حقل معرفي "ابستيمولوجي" يشكل نسقا شاملا، إضافة إلى ذلك تستوعب سوسيولوجي النص باعتباره بنية تامة تتجاوز فيها الإيديولوجيات "المصورة" عبر التشكيل اللغوي، وتصطبغ بطابع صدامي يؤول إلى بناء بنية دالة تمثل عمق النص ومن هذا المنطلق أردت أن اكشف من خلال رواية كتاب الأمير عن أغرض الايدولوجيا محاولا اجتناب كون الرواية إيديولوجيا تسهيلا لعملية الدراسة.

وقبل أن نخوض في دراسة الايدولوجيا لابد لنا من الإشارة إلى الدور الكبير الذي قامت به الرواية، وذلك لكونها تمكنت من رصد التناقضات الاجتماعية ، كما يعود لها الفضل في الكشف عن خبايا الأزمات الكبرى التي عرفتها أوروبا اثر حركات تطور المجتمعات الصناعية ، وقد كشف النقاد ، الماركسيون عن جدلية العلاقة بين الرواية والواقع في عكس الايدولوجيا السائدة ، حيث كان "لوكاتش" يدعو إلى ضرورة التفريق بين إيديولوجية الكاتب بوصفه أنسانا، وأيديولوجية كتاباته التي لا تخضع إلا لمنطق الكتابة ونسج الدلالات.

إلا أن الدراسات التطبيقية لمؤلفات بعض الروائيين العالميين مثل بلزاكBelzakhonorede تولستويtalstoiLeonوديستوفسكيDostoievski، «كان لها الفضل في بلورة اتجاهات نقدية حول نظرية الرواية، كما اهتم علم الاجتماع بها كفن إلى غاية ظهور علم اجتماع الأدب الذي درس الأدب كظاهرة اجتماعية ، وقد اتجه عبر مروره بمراحل متعددة، إلى أن تبلورت نظرية الرواية كفن مستقل بذاته له قوانينه وضوابطه ومميزاته.»([16])

ولقد ميز الناقد المغربي "**حميد لحميداني**"بدوره ثلاثة أشكال في صيرورة ارتباط هذا المنهج بنقد الرواية وهي كالتالي:. النقد الجدلي في صورته الأولى :وارتبط بالمادية ، حيث تكون الرواية شكل من أشكال البنية الفكرية للمجتمع، وتدخل الرواية لتصوير الصراع حول المصالح المادية بين الطبقات.

بـ البنيوية التكوينية: وهي بدورها حاولت انجاز علاقة بين إيديولوجية الكاتب والمجتمع والنص الأدبي والروائي، حيث يكون الكاتب نتاجا لظروف سيوسيو تاريخية، ومن أبرز أعلامها "لوكاتش" و"غولدمان" اللذين بلورا. تباعا . فكرة رؤية العالم.

ج ـ سوسيولوجيا النص الروائي:ويعد "ميخائيل باختين BaktineMkahailMikhailovitch هو أول من أقر بسيسيولوجيا الأدب إلى بناء سوسيولوجيا الروائي، وقد بنى آراءه حول الرواية معتمدا على التحليل العميق لعلاقة اللغة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي([17]).

وقد سعيت انطلاقا من هذه الأشكال إلى محاولة إبراز الطرح المتبني لفكرة الايدولوجيا في الرواية وهذا ما دفعني إلى اعتمادها.

1 . إيديولوجيا الرواية:

انطلق فيها من النتائج التي توصل إليها "لينين"في دراسته لأعمال ديستوفسكي وتولستوي، والتي لاحظ فيها استعمالهم لمصطلحات المرآة والانعكاس والتعبير لتحديد علاقة الكاتب بالتناقضات على مستوى الواقع وصيرورة التاريخ، وهذا ما جعل لينين يرى بأن أعمال تولستوي تحوي معطيات كثيرة للواقع، وتتضمن تناقضات الكاتب نفسه، ويتضح ذلك من خلال دراسة التناقضات الداخلية لمؤلفاته والعلاقات الجدلية التي تحكمها، نظرا لأن مادتها. الواقع التاريخي . مادة مفعمة بالتناقضات.

إلا أن "ماشيري" قد تعرف على الواقع كاملا ، كما يعتقد أن صورة الواقع كما تمثلها في مرآة النص ، لا ينبغي البحث عنها في الواقع، بل في الشكل الذي تم رسمه داخل المرآة ، أو بمعنى آخر أن النص لا يمكنه أن يعكس الحقيقة الكلية للمسار التاريخي ، لذلك فهو لا يعبر إلا عن حدود المعرفة .

لذلك فإنه لا يمكن للناقد الانتقال بين النص والواقع لفهم مجموعة متغيرات معقدة «بل ينبغي تحليل النص بالنظر إليه كبنية ، وهذه التناقضات المكونة للنص الروائي تمثل أيضا معطيات

تفتح آفاق تأويلات متناقضة للنص ذاته ، فالتأويل البرجوازي لأعمال "تولستوي" ناتج عن احتواء النص التولستويي على إيديولوجيتين متناقضتين موجودتين على قدم المساواة ، والروائي لم ينجر ، لأي منهما، لهذا فالكاتب لا يعبر بالضرورة عن وضعيته ، وإيديولوجيته لا تظهر مباشرة لأن فيها بعض الطموحات التي تتحقق في الواقع» ([18])

ويلاحظ عن تحليلات "ماشيري " لم تنفصل عن الرؤية الماركسية لعلاقة الأدب بمساره التاريخي ، وهذا ما دفع بـ"ميخائيل باختين"إلى أن يقدم آراءه حول الدور الذي يلعبه التناقض الإيديولوجي داخل النص الروائي ، حيث استطاع أن يبلور من خلال أعماله"شعرية ديستوفسكي" و"الماركسية " و" القول في الحياة وفي الأدب" ـ علم اجتماع النص الأدبي، وبذلك تمكن من تحديد مهمته في «فهم هذا الشكل الخاص للاتصال الاجتماعي الذي يوجد محققا ومثبتا في مادة العمل الأدبي و"الماركسية وفلسفة اللغة" و"القول في الحياة والقول في الأدب" ـ علم اجتماع النص الأدبي، وبذلك تمكن من تحديد مهمته في "فهم هذا الشكل الخاص للاتصال الاجتماعي الذي يوجد محققا ومثبتا في مادة العمل الأدبي» ([19])

بالإضافة إلى ما قدمه «باختين" في تأسيسه لعلم اجتماع النص الأدبي ، واستفادته مما قدمته الانجازات اللسانية في تحليل بنية النص الروائي، استطاع الناقد التشيكي"بيير زيما zimapierevalery" من خلال مؤلفه " سوسيولوجيا النص الروائي« أن يقدم إضافات متميزة، حيث أقام منهجه على أساس التآلف بين الأبحاث الشكلانية والبنيوية وبين النتائج التي توصلت إليها سوسيولوجيا الأدب، كما قدم "غولدمان"، في البنيوية التكوينية، لأنه تزاوج يستفيد من اتجاهات تجعل النص ذا طابع مزدوج، ذا بنية مستقلة من جهة، وبنية تواصلية من جهة أخرى، بمعنى أنه دليلsigne مركب من العمل المادي الذي له قيمة الرمز الحسي ومن الموضوع الجمالي المتجذر في الوعي ويحتل مكانة في المعنى» ([20])

إن البحث في الخاصية المميزة للكتابة الروائية التي تعبر عن الصراع الإيديولوجي عن طريق فهم السياق الصوتي والسردي كوقائع اجتماعية تتصل بالمستوى الدلالي، تحدد طابع كل فترة في مراحل تطور المجتمع وهذه الوضعية السوسيولسانية، هي التي تدلنا على حقيقتها الأفكار والإيديولوجيات المبثوثة في النص ، أما ما يتعلق بصراع الإيديولوجيات داخل الرواية فيكون باستعمال آليات الحوار، وتشريح البنى اللغوية التي تعكس الصراع على مستوى آخر خارج النص ، واستيعاب طبيعة هذا الصراع ، يفتح المجال للحديث عن موقف الكاتب وموقف الرواية تجاه أيديولوجيات أخرى ، لأنه"عندما ينتهي الصراع الإيديولوجي في الرواية، تبدأ معالم إيديولوجية الرواية بالظهور، وهذا ما يدفع بالباحث إلى محاولة البحث عن طبيعة وجود الإيديولوجيات في الرواية ، ويتجه البحث في الرواية كايدولوجيا، وهذا المستوى سنحاول البحث فيه للوصول إلى التاريخ وأدلجة الرواية.

2. رواية الايدولوجيا:

تدخل الإيديولوجيات في النص الروائي كعناصر جمالية، كما أنها لا تؤدي إلا وظيفة التشكيل لمادة العمل ، فهي غير مصنفة وغير متحكم فيها ولا محكوم عليها ، وفي هذا تقول"جولياكريستيفا joli kristhva. إن النص المتعدد الأصوات polyponique ليس له إيديولوجية واحدة، هي الإيديولوجية المشكلة formatrice الحاملة للشكل، وبذلك تكون عناصر اغتناء للمادة الروائية، وأدوات صياغة يستعملها الكاتب في فضاء النص، الذي يستوعب العديد من الإيديولوجيات الموجودة سلفا في الواقع أو المتضمنة في نصوص أخرى ، لذلك توظف "كريستيفا "مصطلح "الإيديولوجيم" وتقصد به الوظيفة التناصية التي يمكننا قراءتها ، وهي تتمظهر ماديا matèrialiser على مختلف مستويات بنية كل نص ، والتي تمتد من خلال صيرورتها ، مانحة إياه كل مطابقاتها التاريخية والاجتماعية.

ومن هذا المنطلق تكون الإيديولوجيات داخل بنية النص الروائي ، وخاصة الرواية الديالوجية ، كأنها موجودة في حقل اختبار لمعرفة صلابتها وقوتها في مواجهة الأسئلة التي توجه إليها من طرف القارئ ، وبذلك يتم أحيانا أخرى إخضاع بعضها للبعض بوسائل فنية وتمويهية، تلهي القارئ عن معرفة ما يجري من تواطؤ ضد ملكاته الإدراكية

إن تفاعل الإيديولوجيات داخل النص الروائي يتولد عنه موقف الكاتب الإيديولوجي أيا كان توجهه ، سياسيا أو معرفيا ، ورؤيته للعالم ، الأمر الذي يجعل الرواية عنصرا أيديولوجيا ضمن حقل ثقافي شامل، مما يجعل الباحث في أمس الحاجة إلى تحديد هذه الرؤية إلى حركة مكوكية بين النص وداخله ، لدرس النص من داخل علاقاته كتحليل ، ثم بين النص وخارجه لدراسته كتفسير وتأويل ، هذه الحركة المكوكية بحسب غولدمان تنطلق من داخل النص ومكوناته إلى مجادلة هذه المكونات مع البنية الأم التي يشكلها النص ويخدمها ويتولد عنها تكشف لنا «قصد المؤلف وهدفه وإيديولوجيته كعناصر فاعلة في تكوين النص .» ([21])

وبعد تعرفنا على أهم النظريات التي حاولت تسليط الضوء على مفهوم الايدولوجيا وأهم الإشكالات التي عرفها استعماله عبر مختلف العلوم الإنسانية ، وعلاقته بالأدب ، واعتباره كتجل ووعاء فكري استطاع أن يبلور ويعكس رؤى الأفراد والفئات الاجتماعية.

كما حاولنا التطرق إلى علاقة الايدولوجيا بالرواية وأهم النظريات النقدية المتعلقة بها ، لنخلص في الأخير إلى الدراسة التطبيقية محاولين الاستفادة من الدراسة السوسيولوجية، حيث يكون الانتقال من جماليات الشكل للكشف عن الرؤى الإيديولوجية المندسة خلف الوقائع التاريخية التي وظفها الكاتب في الرواية، ثم الوصول إلى البيئة الاجتماعية ، الذي يعد أساس الكشف عن طبيعة الطرح الإيديولوجي في تركيبة النص الروائي. وهكذا سنحاول معرفة الأفكار المكونة للنص الروائي بوصفه عملا أدبيا قبل كل شيء مرتبطا بشكل بديهي ، بسياقه الإيديولوجي وبسياقه الأدبي ،

بل نهدف أيضا من خلال هذا المبحث إلى معرفة الايدولوجيا السياسية المنبثقة من المادة التاريخية والتي تكون النص الروائي ، عن طريق التحليل لوظيفة الشخصيات الإيديولوجية من خلال المتن الروائي، وبذلك نكون قد أفرغنا العمل الروائي من جماليته ، وبذلك يصير وعاء يحتوي أفكارا سياسية يمكن أن نعثر عليها في أشكال تعبيرية أخرى، ومع ذلك فإننا نرى بأن الايدولوجيا تدخل عالم الرواية التخيلي كمكون جمالي يكون أداة في يد الكاتب ليعبر به عن إيديولوجيته الخاصة .

ويعد البعد الإيديولوجي أحد المكونات الأساسية للخطاب الروائي ، والمتتبع للرواية الجزائرية يلاحظ أنها قد ارتبطت بالواقع الإيديولوجي التاريخي ، مثلها في ذلك مثل الرواية العربية التي سايرت التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي ميزت المجتمع العربي ، حيث يجدها قد دعت للثورة ، ثم بعد الاستقلال قامت بدور آخر ، تجلى في إدانتها لأساليب القهر السياسي من خلال تصويرها وإبرازها لواقع القمع والاضطهاد والتعذيب السياسي الذي يسيطر على الحياة السياسية العربية ويحد من حرية الإنسان العربي ويعتدي على حقوقه الإنسانية العامة والخاصة، ويمنعه من تناول أمور وطنه بحرية وديمقراطية، وهذا المسار التاريخي الذي اتخذته الرواية الجزائرية يجعلنا لا نشك في أن الإيديولوجيات المكونة للنص الروائي السياسي هي وليدة الأفكار السياسية الوطنية ، وهذا ما يؤكد طرح إشكالية الإيديولوجية في الرواية ويفرضه أمران لا ثالث لهما:

أ ــ **الأول :موضوعي**:ويتمثل في واقعية الرواية السياسية وارتباطها بتاريخ الأفكار السياسية والاجتماعية وما يدل على ذلك مضمونها الموضوعي.

ب ـ **الثاني:شكلي جمالي**:ويتمظهر في الإيديولوجي باعتبارها مكونا جماليا في النص الروائي ، وما يجسد ذلك كونها تدل على المسار التاريخي الواقعي للإيدولوجيا الوطنية والتي تشكل جزءا من الفضاء الجمالي المؤسس للمتخيل الروائي ، كما تكشف لنا على قدرة الكاتب الفنية ومدى تحكمه في بناء النص الروائي بالشكل الذي يحقق جماليته ومتعته الأدبية، ولذا فان «الخروج من المباشرة والتقريرية يعد من دلائل التحكم في الجدلية القائمة بين الجمالي والواقعي والخارجي.» ([22])

ومن هذا المنطلق يبدو أن قيمة النص الروائي لا تظهر لنا إلا بعد إفراغه من أفكاره الإيديولوجية ، وهذا ما يجعلنا لا نستغني عن الدراسة الفنية ، لأن الرواية بدونها تصير مجرد مجموعة من العلامات الدالة على الإيديولوجيات المهيمنة عليها ، في حين أن هدفنا هو تأويل هذه العلامات إلى مرجعيات إيديولوجية واضحة.لأن النقد يؤول العلامة المكتشفة.

والدارس لرواية "كتاب الأمير" لابد له أن يطرح السؤال التقليدي ، أو بتعبير آخر علام يدل النص؟ إن محاولة معرفة المضمون الخارجي المتعلق بمقاصد المؤلف أمر لابد من معرفته، وذلك لأن للنص جانبين متكاملين :جانبا موضوعيا يشير إلى اللغة ، وهو الذي يجعل عملية الفهم ممكنة ، وجانبا ذاتيا يشير إلى فكر المؤلف ويتجلى في استخدامه الخاص للغة وهذان الجانبان يشيران إلى تجربة المؤلف التي يسعى القارئ إلى إعادة بنائها بغية فهم المؤلف أو فهم تجربته.

وبعد تعرفنا على الجانب الشكلي اللغوي لابد من الكشف عن الجانب الموضوعي، وهنا نطرح التساؤل التالي هل ثمة دلالة مرتبطة بالواقع السياسي الوطني أو العربي أو العالمي؟ والحقيقة المتجلية في هذا النص هي غياب السياق الذي يمكن أن ترتبط به دلالات النص الداخلية ، فليس هناك ما يشير إلى ارتباط الرواية بواقع خارجي.

ولكن النص لا يمكن أن يقوم من فراغ ، وأن تبدو علاماته الخارجية فليس ذلك دليلا على انغلاقه على العالم الخارجي في الدلالة العامة. لأننا نجد في الرواية أن المؤلف قصد بيان العلاقة التي يجب أن تكون بين الظالم والمظلوم ، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الدين المسيحي ، والدين الإسلامي، وضرورة الاتحاد من أجل القضاء على الظلم والتعسف والقهر السياسي والاجتماعي الذي يعانيه الشعب الجزائري من وطأة الاستعمار الفرنسي، والسعي لاحتلال السلم والتسامح الديني، والاعتراف بمواقف الأبطال من أجل المحافظة على الأرواح وحقن الدماء رغم استسلام الأمير البطولي الذي لا نظير له.

3 . كتاب الأمير بين البعد التاريخي والإيديولوجي:

إن رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج هي رواية لا تقول التاريخ إنما تستند للمادة التاريخية ، إلا أن اللافت للانتباه أن واسيني حاول كتابة التاريخ العام للجزائر، والتاريخ الشخصي لبطل من أعظم أبطال المقاومة الشعبية ألا وهو الأمير عبد القادر، وشخصيات أخرى أسهمت في الاعتراف ببطولة الأمير، وهكذا استطاع الكاتب أن يعيد كتابة التاريخ وتركيبه بطريقة نقدية وجمالية، حيث استطاع أن يفتكّ ذلك التاريخ النضالي الحافل بالانتصارات من براثن الأسطورة، كما كشف لنا عن فضاعة الحرب وهولها ، ووضاعة الاستعمار البغيض، الذي تفنن في التنكيل بالشعب الجزائري، الذي ظل يتخبط في الجهل والفقر والتخلف والعنف، هذه الظروف تضافرت وأسهمت في تسريع السيطرة على الجزائر، وهكذا كان انكسار مشروع الأمير ، وهكذا ضمت في النهاية إلى الإمبراطورية الفرنسية التي كانت تعيش صراعات صعبة ومؤلمة بين الوفاء لمبادئ ثورتها والتوسع وقمع شعوب مستعمراتها وإبادتها بشتى الأساليب القمعية.

ومع ذلك لا نكاد ننكر مدى وفاء الكاتب لمقومات الفن الروائي على الرغم من تعالق الرواية بالتاريخ، لأنه يستند للخطاب الإنشائي الذي يقول التاريخ ، ولكنه بشكل مغاير، وهذا ما يراه"بيار لويس رأي:"الرواية التاريخية تغدو أكثر صحة من التاريخ وان شئنا قلنا إن الرواية التاريخية صحيحة على نحو مغاير.

ومع ذلك يبدو لنا واسيني أننا صورة ناصعة من حياة الأمير النضالية وعلاقتها بالقس الفرنسي ديبوش الذي وهب حياته لنشر المسيحية ومساعدة المحتاجين في الجزائر، وتبنيه لقضية الأمير يكشف لنا على تصوير كليهما في مرآة الآخر ، والتي تخالف مقاصد الظالم والمظلوم .

وقد قدم لنا واسيني الأعرج ببراعة الاستعمار الفرنسي للجزائر بداية من عام 1830 من أجل الولوج إلى الحديث عن الأمير عبد القادر، وهو في ريعان شبابها في الثالثة والعشرين من عمره، ثم رحلته مع والده سنة 1828 للحج وزيارته لتونس والحجاز والشام والعراق والقدس ودمشق، ومقام صاحب الفتوحات محي الدين ابن عربي، وذلك لغرض التعبير على النضج الديني لدى الأمير، ثم الحديث عن تعمقه في المعارف والعلوم باطلاعه على كتب ابن خلدون وكيفية ولوعه بالكتب التي كان يشتريها من الوراقين.

يقول الراوي في هذا الصدد مد عبد القادر يده نحو مصنف المقدمة لابن خلدون المخطوطة التي دون على صفحاتها ملاحظاته الكثيرة والتي جاءته من بلاد المغرب من تاجر وراق رآه مرة واحدة عندما دخل عليه خيمته لحظة القيلولة ووضعها في حجره وهو يردد : اقرأها، وترحم علي، أو العنّي إذا لم تجد فيه ما يشفي الغليل، ثم انسحب، ولم يأخذ حتى ثمنها.

وهكذا يكشف عن النضج الثقافي والفكري لدى الأمير عبد القادر في سن مبكرة الذي يؤهله للإمارة والقيادة.

وهكذا **يكون واسيني الأعرج** لا يختلف عن **الروائي عبد الرحمان منيف** الذي يعرف الرواية بأنها «تاريخ من لا تاريخ لهم، أو سجل حي ، أو وثيقة اجتماعية تاريخية يقرأ فيها الناس أفكارهم وأحلامهم وضباب آمالهم وسير حياتهم، أو مرآة شديدة القدرة على الالتقاط يرون فيها صورهم وأسماءهم وذواتهم العميقة ومخزون واقعهم ومصائرهم ، أو حين يرى في قدرة الرواية على أن تعرض حيوات بشر أكلت السياط ظهورهم سببا من الأسباب التي ميزها عن البحوث والدراسات وجعلها جنسا أدبيا قائما بذاته.

ومن هذا التعريف نستخلص أن الرواية تنفتح على التاريخ ووقائع الحياة وصيرورتها ، وعلى السياسة بأوسع معانيها وأعمقها ، مؤسسا وشائج علاقة حيوية تربط ما بين الرواية من جهة، والمفهوم العميق لكل من التاريخ والسياسة على نحو ما ينبغي أن يتجسد في الرواية التي هي تاريخ حي، وتاريخ حداثة من جهة أخرى ، فالرواية تكتب التاريخ بطريقتها الخاصة فلا تكون كتابا مصقولا في التاريخ بل"مصباحا"يضيء التاريخ عبر انفتاحها عليه ، فيجعلنا نرى وقائعه وأحداثه ومشاهده من منظورات متباينة وزوايا عديدة.

ومن خلال رواية كتاب الأمير استطاع واسيني أن يستدعي التاريخ المغيب، أو المنسي أو المراد نسيانه أحيانا، فهو يلح على أن يكون موضوعا للرواية ، وليس التاريخ الواقعي الظاهر، والمتعارف عليه، وكأني به يريد تعريف التاريخ، ويسعى إلى تجسيده في عمل جمالي تلهبه المخيلة الخلاقة، وتعيد صهر مكوناته، وتشكيل وقائعه، وبناء الرؤى التي يراد له أن يبثها، وهكذا يكون قد أعاد تعريف التاريخ عن مسعاه الهادف إلى إعادة تعريف طائفة من المصطلحات المتداولة، عبر

العديد من الممارسات المبتذلة، وفي مقدمتها ثلاث مصطلحات هي"السياسة، و"الثقافة"و"المعرفة"..»([23])

فالسياسة بمعناها المبتذل قد دفعت الإنسان المثقف المسكون برسالة وجودية ، إلى الرواية ليكون روائيا مثقفا مسكونا برؤية سياسية عميقة، وهذا ما نلمحه عند واسيني الأعرج حيث نجدها من مكونات هويته العميقة المتألقة إلى كمال محتمل، أو يمكن اعتبارها عمادا مؤسسا لعملية إحالة ذاته إحالة موضوعية في العالم ، ودفعت به إلى المعرفة واستنباتها، ومراجعة التاريخ الجزائري الحديث، واكتشافه والكشف عنه، بصياغة جمالية، دافعة إياه إلى قلب السياسة، وهكذا لا تكون الرواية مجرد وسيلة تعبيرية تسهم على نحو غير مباشر في إحداث التغيير، بل تتحول ، تنظيرا وممارسة إبداعية إلى عمل تغييري...جزء من عمل سياسي بمفهومه المتقدم والحضاري ، وهكذا يكون واسيني الأعرج الروائي في رحاب الرواية وفوق أرضها الجمالية الخصبة مستنطقا التاريخ ، وفاسحا المجال أمام التاريخ و السياسة والثقافة والمعرفة، كي تستعيد مفاهيمها العميقة، وتعيد تواشجها الخلاق ، فليست السياسة إلا عملا إستراتيجيا تعبيريا، حيث يعيد المدى ويرتبط بالثقافة بمعناها العميق، لا بمعناها المبسط الذي يختزلها في الدعاية والتعبئة ، وليس المثقف أو المبدع ، مجرد صدى للتعبير عن الايدولوجيا فحسب ، وإنما له دور أكبر من ذلك يتمثل فيها نتاج المعرفة وبناء مستقبل الحياة والكشف عن الحقائق المسكوت عنها.

وفي حدود دراستنا الهادفة إلى اكتشاف البعد التاريخي والإيديولوجي في رواية كتاب الأمير محاولة منا لتوضيح صلته **بالتاريخ والسياسة**، وذلك لغرض الإشارة إلى تعامله مع السياسة المؤسس على مفهومها العميق والذي سبقت الإشارة إليه، إلا أننا نؤكد على تعامله مع **التاريخ** من منطلقات جمالية رصينة، وهذا ما يؤكد القول بأن الرواية هي تاريخ من لا تاريخ لهم، وهي بذلك تختلف عن التاريخ وعن السياسة استنادا للمعنى التقليدي الذي ألفيناه عند مؤرخي سير الحكام والسلاطين.

ونخلص مما سبق إلى أن الرواية استطاعت أن تمسك **بجماليات الفن الروائي**، حيث تمكن الكاتب من الغوص في أغوار الواقع الاجتماعي سواء في **فرنسا** إبان الحكم الملكي أوفي **الجزائر**، والكشف عن الاستعمار الفرنسي وسياسته التي استخدمت شتى الطرق **لطمس هوية** الجزائريين وإلحاقهم بالدولة الفرنسية على اعتبار الجزائر قطعة فرنسية، استباحت فيها فرنسا الحرمات ، حيث أصبح المجتمع يسوده التخلف والجهل والأمية والأمراض المختلفة والصراعات، وانتشار غلاة الدين والعمالة، والتي اتخذتها فرنسا بمثابة الأسلحة الفتاكة، أما الواقع الفرنسي فلم يكن بأحسن حالا من الواقع الجزائري وخاصة ما يتعلق منه بالسياسة الحكومية ضد العمال .

والملاحظ أن الرواية قد استنطقت مختلف الأحداث سواء على مستوى الجهة الفرنسية أو الجهة الجزائرية، حيث ركزت على أوضاع الحكم في عهد نابليون بونابارت، وما عرف به من تغيرات في مختلف الأصعدة وخاصة ما يتعلق منه بالفكر الاستعماري التوسعي الفرنسي، وما انجر منه على

الشعب الفرنسي والسلطة الفرنسية، أما الجزائر فقد كانت تعاني من استعمار بغيض تفنن في إعادة الشعب الجزائري بشتى الأساليب، وهذا لم يحل دون وجود أبطال لهم من الحنكة السياسية والعسكرية كالبطل الأمير عبد القادر الذي عرف بشجاعته وذكائه ، والذي استطاع أن يقيم دولة منتظمة.

لقد كشفت الرواية عن النظرة الاستعلائية تجاه (**الأنا**) الذات التي يبدو أنه متدثر بها الاستعمار الجديد، تلك النظرة المعززة بالقوة والتجهيزات والأموال التي تجلت أولى بوادرها في القتل والحرق والتدمير تارة، والترغيب والترهيب وشراء الذمم تارة أخرى، وهذا الواقع المكرس بهذه الصفة هو الذي أضفى على تحركات الأمير نصيا وسلوكيا وتأويليا صفة الجبر والفرض في كثير من المواقف ، وخاصة في" واقعة الاستسلام" ويتجلى ذلك في الحوار الذي دار بين الأمير عبد القادر ومصطفى بن التهامي حول ما يجب فعله بعد إحكام المستعمر بالتعاون مع المتخاذلين وسط البلاد وعلى الحدود قبضته على عناصر الأمير «**...ممتلئ القلب بالمرارة، أفهم خيبتك الكبيرة...آلامك هي آلامي...هذا خيار لم نختره...لقد تعلمنا الشيء الكثير...أقدر حرائقك التي تشتعل في أناك ذلك الفرق بيني وبينك أني سلمت أمري إلى الله، ولم يعد هنالك ما يمنع من الوفاء**» .([24])

هذه الوقائع التي عبرت عن رؤى كانت وليدة وقائع ميدانية امتزج فيها الدم بالدموع وبالخوف من كل لحظة آنية أو آتية فخلف آلاف القتلى والجرحى والأسرى ، وقائع نبتت معالمها وفق ديكور أفرغت فيه الطبيعة أقسى ما عندها من طقس و وهاد وجبال وصحارى ، أو بمعنى آخر أن بلورة تلك الرؤى لم يكن إراديا ، بل كان إجباريا مفروضا من الوقائع نفسها ومن ظروف حربية وطبيعية خاصة جدا تبلورت ملامحها وتجسدت خصائصها عبر بنية النص التاريخية وتداخلاته السردية فاستنطقت التاريخ وكشفت عن غطرسة الآخر، وموهبة وحنكة الأمير وما لقنته له الأيام من مفاجآت وأهوال .

ومن هنا يمكن القول إن رواية الأمير قد عبرت عن رؤى جديدة من خلال الوقائع التاريخية من جهة ، كما تبين لنا بين ثنايا الحدث السردي من جهة أخرى، وهذا ما يجعل كل قارئ أو مؤول لفضاءات تلك الرؤى يرى بأنها لم تنحصر في وعي الأمير أوفي وعي الغزاة وحدهم ، بل توزعت بينهم جميعا.

الهوامش

1) - بشير بويجرة ، الأنا والآخر، ورهانات الهوية في المنظومة الأدبية الجزائرية، منشورات دار الأديب وهران، ط1 ، 2007، ص8

2) ينظر: المرجع نفسه، ص8

3) - المرجع السابق ، ص9

4) - المرجع السابق، ص159

5) – واسيني الأعرج، كتاب الأمير، دار الآداب، بيروت، ط2، 2008، ص9

6) - المرجع السابق، ص212

7) - واسيني الأعرج ، كتاب الأمير:مسالك أبواب الحديد، ص158

8) - ياكوفاسبرغ، المنحنى السوسيولوجي في النقد الأدبي، ترجمة نوفل نيوف، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد1، 1978، ص73

9) - ادوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، 2000، ص103

10) - محمد كامل الخطيب، الرواية والواقع، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط 1، 1981، ص109.107

11) - ياكوفلكسبرغ، المنحنى السوسيولوجي في النقد الأدبي، ترجمة نوفل نيوف، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد1978، ص73

12) - المرجع نفسه، 73

13) - رينيه ويليك وأوستنورين، نظريةالأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، دت ، دط، ص119

14) - حميد لحميداني، النقد الروائي والايديولوجية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص55 .73

15) - حميدلحميداني، النقد الروائي والايديولوجيا، ص36 ، 43 . بتصرف .

16) - المرجع نفسه ، ، ص73 .75

17) - المرجع السابق، ص78

18) - ينظر علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في الرواية الجزائرية في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2000، ص64

19) - ينظر علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في الرواية الجزائرية، ص64.

20) - المرجع السابق ، ص186 . بتصرف

21) - واسيني الأعرج ، رواية كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديدص78

22) - ينظر:عبد الرحمان منيف، الكاتب والمنفى"هموم وآفاق الرواية العربية"، ط1، 1992، دالر الفكر الجديد، بيروت، ص364، بتصرف

23) - واسيني الأعرج ، كتاب الأمير، ص24

24) - المرجع نفسه، ص19